بعد الفاجعة

أمـــاه . . .

للآنسة أمينة قطب

الدمنهور ١٥ أكتوبر سنة ١٩٤٠ . . .

أماه . . .

أترانى أقوى الآن على أن أكتب شيئاً ؟ يخيل إلى أنى لا أستطيع ، وإن استطعت فبضع كلمات لا تعبر عما فى نفسى

لقد كنتِ القوة الغريبة التى تُشيع الحياة فى عقولنا ونفوسنا ، فنفكر ونحس ، ونقوى على العمل . كنت الأمل الباسم الذى ينير لنا الحياة . كنت المصباح الهادى نسير على ضوئه غير مبالين ما يعترض طريقنا من صعاب

والآن ماذا فقدنا بفقدك يا أماه ؟ لقد فقدنا كل شىء . فكفت عقولنا عن التفكير ، وأظلمت نفوسنا ، وخمدت فيها جذوة الحياة

كل هذا ولما يمض أسبوع على غيبتك . فكيف تمر بنا الأيام والسنون ؟

ها هو ذا القمر الذى كنت أجلس إليه الساعات الطوال أتأمل فى جماله وما يسبغه على الكون من جمال وسحر . ها هو ذا الآن يسطع أمامى ويملأ الكون نوراً ، فماذا أرى فيه ؟ إنه رقعة صفراء أو بيضاء لست أدرى ! لا توحى إلى النفس بشىء ، بل تشوه الفضاء الواسع بلونها الباهت المريض . . . أى تبدل هذا الذى تم فى نفسى خلال أسبوع ؟ . . . وبمى ماذا أقول ؟ أسبوع فقط ؟ إننى لأحس به سنين وأجيالاً

آه ما أقسى الحياة ، حين تموت فى النفس الحياة !

أماه . . .

ربك تعالى وأعيدى إلينا الحياة . إن هذه الوحدة قاسية ومؤلمة . ولن نستطيع احتمالها أكثر من هذا الأسبوع ! تعالى فلن نستطيع احتمالها السنين الطوال

أماه . . .

هل أطمع فى تلبية ندائى ؟ هل أطمع فى عودتك يوماً من الأيام ؟

* * *

الجمعة ١٨ أكتوبر . . .

أمى . . .

أصحيح أن ما مضى على رحيلك عنا هو تسعة أيام ؟ إذن كيف تمر الشهور والسنون ؟ تسعة أيام فقط تتبدل فيها نفسى هذا التبدل ؟ أين نفسى الأولى المرحة المشرقة المنفتحة للحياة الخالقة للآمال ؟ أين هى من هذه النفس الميتة الغائبة عن العالم وما فيه من آمال وأحلام ، البعيدة عن كل ما فى الكون من مباهج وجمال ؟ إن هاتين النفسين لتفصل إحداهما عن الأخرى سنون وأجيال !

لقد طرق سمعى من بعيد منذ لحظات صوت « أم كلثوم » فى تلك الأغنية الحبيبة إلى نفسك التى كنت تطربين لها حين أغنيها لك . . . تنبهت فجأة وكأننى أحلم : أو ما زال صوت « أم كلثوم » يردد فى الآفاق ويسمعه الناس ويطربون له ؟ أو ما زال فى الدنيا غناء ؟ !

أين أنا إذن وأين نفسى التى كانت تطرب للغناء ؟ لقد جمعت شتات فكرى على نغمات هذا الصوت ، وأخذت أبحث عن نفسى التى كانت تسمع وتطرب ، فوجدت أنها كانت هنا قبل تسعة أيام !

أمى . . .

يخيل إلىّ عند ما أسمع صوتاً كنت أسمعه أو أرى شيئاً كنت أراه هناك فى المنزل الآخر قبل أن ترحل إلى هذا البيت . . . يخيل إلىّ أننى لو ذهبت إلى المنزل الأول لوجدتك هناك ! وعندئذ أجلس إليك وأحدثك وأغنى لك تلك الأغانى التى كنت تحبينها !

أجل ، يخيل إلىّ هذا فأصدقه وأعتزم الذهاب . ويومض فى نفسى شعاع من الماضى الحبيب ، ولكن سرعان ما يطفئه صوت الحقيقة المؤلم الحزين ، وتعود نفسى إلى ظلامها وموتها

أمى . . .

هل أطيع ذلك الخيال مرة وأذهب إلى المنزل الآخر ؟ من يدرى يا أماه ، ربما أجدك وأجلس إليك ولو بضع لحظات ؟ !

ابنتك الحزينة

آنسة أمينة قطب